الحمى من فيح جهنم

تكاثرت الأخبار فى الصحاح وغيرها عن رسول الله عليه السلام أنه قال « إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة فان شدة الحر من فيح جهنم » وقال « اشتكت النار إلى ربها فقالت : يارب أكل بعضى بعضاً فأذن لها بنفسين : نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف ، أشد ماتجدون من الحر ، وأشد ماتجدون من الزمهرير »

وقد أشكلت هذه الأحاديث أيضاً . فان ظاهرها أن الحرارة التى نحسها فى الصيف ، والبرودة التى نحسها فى الشتاء صادرتان من النار . وهـذا يكاد يكون بطلانه من قسم الضرورة . فان الحرارة والبرودة ناتجتان من موقف الشمس من الأرض لا من جهنم وهذا مما لاينازع فيه أحد من العقلاء .

وقد أجاب فريق من العلماء عن ذلك وقال : إن الكلام فيه تشبيه . والمراد أن شـدة الحر مثل فيح جهنم فى الحرارة . ويرد هذا القول الرواية الاخيرة ، فهى صريحة بأن الحرارة والبرودة من تنفس النار . ثم كيف يقال : إن حرارة الصيف مثل حرارة النار التى تطلع على الأفئدة ، والتى تشوى الجلود شيًّا ، والتى (وقودها الناس والحجارة) والتى نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً منها كما فى الحديث الصحيح ؟ ! وصح عن رسول الله عليه السلام أنه قال « أهون أهل

النار عذاباً من له نعلان من نار يغلى منهما دماغه » . فكيف يقال : إن الحر مثل نار هذه أقل أوصافها ؟ ! أليس هذا مثل أن يقال : إن قرصة النملة مثل عضة الأسد ، أو مثل ضربة السيف وطعنة الرمح ؟ ! لاريب أن حمل الحديث على هذا باطل شرعاً وعقلاً ولغة .

وأجابت طائفة أخرى قالت : إن الأحاديث على ظاهرها ، وإن الحرارة التى يجدها الناس فى القيظ هى خارجة من جهنم . ولم يبالوا مخالفة المشهود . وعندى أن تكذيب الحديث أفضل من هذا القول .

والجواب الصحيح فى الحديث ، الذى لا يعدل عنه أن الحرارة من الشمس ، وأن الشمس من النار . أى إن الشمس جذوة من جذواتها ، وشرارة منقدحة منها . فالحرارة الآتية منها هى آتية من النار . وليس أمامنا مانع من أن تكون الشمس من النار . وقد تكاثرت الأحاديث الصحاح بأن الشمس تدنو يوم القيامة من العباد ، وتصليهم ناراً حامية ، حتى يأخذهم العرق فيلجمهم ، وحتى يستصرخوا بالأنبياء من عذابها النكر وربما كان قوله تعالى : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) دالا على ذلك . فالشمس معبودة ، فهى ذاهبة مع عابديها إلى النار . وهى نار محرقة فهى من النار . هذا رأى .

وثم رأى ثان فى الحديث ، وهو أن يقال : حرارة الصيف من الشمس ، وحرارة الشمس مكتسبه من النار وآتية لها منها ، فالحرارة آتية أصالة من النار . أو يقال : ما الشمس إلا شرارة من شرر النار ، انقذفت منها ووقفت كما هى الآن لمصالح العباد

هذه أمور ثلاثة فى الحديث لا نرى عائقاً من أن تكون تفسيراً له . وبها يزول ما فى الخبر من إشكال .

الحمى من فيح جهنم

ومثل هذا الحديث قوله ﷺ « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » رواه البخارى ومسلم .

الحمى حرارة تتولد فى الجسم إذا أصيب فيه أحد مراكز التدبير بسميات الميكروبات ، أو بآلام أخرى شديدة . فانها إذا أصيبت بذلك فسدت حركتها ونظامها ، فتولدت الحرارة المسماة بالحمى . هـذا أمر لا شك فيه . ولـكن ظاهر الحديث خلافه . فانه ربما دل أن حرارة الحمى آتية من لهب النار المعدة للـكافرين

فقالت طائفة : إن فى الـكلام تشبيهاً . والمراد أن حرارة الحمى كحرارة جهنم فى الإيلام والإيجاع . وفى هذا القول ما فى القول الأول على الحديث السابق من الضعف

والرأى الصحيح أن نقول : إن حقيقة الحمى — كما ذكرنا — تتولد فى الجسم لإصابة مركز من مراكز التدبير فيه . غير ان الحرارة المتولدة بذلك هى من جهنم رأساً . أى إن الله أخرج من النار جزءاً يسيراً ونثره فى الأرض يصيب به بعض خلقه إذا ما توفرت أسباب الاصابة وأسبابها القريبة هى ما يذكره أهل الطب . ولـكن الحديث تكلم فيه من جهة منشئه ومبتدئه . فلا مانع أن يكون من النار منشئاً ، ولا مانع

أن يكون من غيرها . فاذا ما جاء الخبر الصادق بأن ذلك من النار لزم القول به .

وأما قوله « فأبردوها بالماء » فهو موافق للطب العصرى ، حتى إن الأطباء العصريين يضعون ألواح الثلج على أجسام بعض المحمومين . غير أنه لايجوز استعمال ذلك وتعاطيه بدون إرشاد الطبيب واستشارته . فقد يكون فيه ضرر لبعض المحمومين . والدواء كله إذا استعمل بوصف الجاهل عاد ضرراً ، وإن كان فى أصله نافعاً مفيداً . بل الغذاء إذا لم يؤخذ بالحكمة والتقدير كان قاتلا أو ضاراً . فكل شىء يحتاج إلى رئيس ومختص يضعه بحكمة وتقدير . فالحديث يدل أن الماء البارد مما تعالج به الحميات ولكن بعد أن يعرف الميزان والمقدار فيه النافع ، وبعد أن يقدره العارفون به ، والعارفون بالطب . وهذا كما يقال : القرآن هدى ورشاد . وإذا قرأه غير العاقل وغير الفاهم له قد يكون ضلالا له وفتنة . وأمثال ذلك . فهذا الحديث من معجزات محمد ﷺ الطبية العلمية التى لا يمكن معرفتها إلا بوحي أو تعلم ، وهو لم يتعلم ، فلا جرم أن تكون وحياً .

الكافر يأكل فى سبعة امعاء

عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » رواه البخارى ومسلم وروى مسلم عن أبى هريرة أن ضيفاً ضاف رسول الله وهو كافر فأمر

له بشاة فحلبت فشرب حلابها، ثم أخرى، ثم أخرى، حتى شرب حلاب سبع شياه. ثم انه أصبح فأسلم فأمر له بشاة فشرب حلابها، ثم بأخرى فلم يستتمها. فقال رسول الله: « المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »

بيان الحديث أن المؤمن حقاً، الصادق فى إيمانه، كثير التفكير فى الآخرة، وفى عذابها، كثير الخوف من الله، ومن عصيانه وعقابه، كثير الخضوع والعبادة، كثير السهر والتهجد والصلاة والصيام، كثير الجهاد فى سبيله وسبيل دينه، كثير الورع والابتعاد عن الحرام وعن مظانه، وعن الشبهات ومواقعها، كثير العناية بدينه وفهمه، كثير البحث والتنقيب عما يرضى الله ويقرب منه، وعما يغضبه ويباعد عنه، كثير الاحتياط لعقيدته وإيمانه خوف أن يصيبه شىء من غبار البدع والشبهات، كثير الرغبة فى الجنة والزهادة فى الدنيا ولذاتها، كثير هذه الأمور كلها: يقل نصيبه من الدنيا من مأكل ومشرب، وملبس ومسكن، وجمع مال فهو يأكل فى معى واحد فقط. وهذا كناية عن أنه قليل حظه من الدنيا ولذائذها بتعلقه بالأمور المذكورة اللازمة للايمان الصحيح. ولا يريد الحديث أن خلقته مخالفة خلقة الكافرين، ولا أن تركيب بدنه خلاف تركيب بدن غيره.

وأما الكافر الذى لا يبالى بالدين، ولا بما يغضب الله أو مايرضيه، فهو عكس المؤمن فى ذلك. فليس له شىء يهمه سوى الدنيا، والاستكثار منها، والجمع لها، والتفنن فى تناول لذاتها، واختراع

المأكولات والمشروبات . فلا يبالى أن يأكل حراماً ، وأن يجمع حراماً ، ولا يبالى بالفقراء والمحتاجين ، الذين يتضاغون حوله جوعاً وعرياً ، لا يعرف لله ساعة يهب نفسه له فيها بعبادة ومناجاة ، أو تفكر فى آلائه وشؤونه . وبالاجمال كل شىء فيه موقوف على الدنيا وعلى خدمتها . فهو كثير الحظ منها ، كثيرة الحظ منه . فهو يأكل منها بسبعة أمعاء . أى انه كثير الحظ منها ، لا أن خلقته مغايرة خلقة المؤمن . والسبعة الأمعاء هنا لا يراد بها حقيقتها . وهذا العدد يراد به التكثير لا التحديد ، مثل السبعين . كما تقول : لا يقبل الله من كافر عمله ولو عبده سبعين عاماً ، ولا من مبتدع بدعته ولو تقرب اليه بها سبعين عاما . وكذا تقول : سبع سنين . قال الله تعالى (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) وقال : (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) . لا يريد الله بذلك حقيقة السبعين ، ولا حقيقة السبعة ، وانما يريد مطلق الكثرة

وكذا الأكل هنا لا يراد به الأكل المعروف وهو ازدراد الطعام ، وإنما يراد معنى أعم ، وهو التمتع بها بالاكل ، أو اللبس ، أو الجمع والادخار . وهو كقول الله (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) وقوله (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم) وقوله (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً)

فهذه الآيات لا تعنى الأكل المعروف ، وإنما تعنى شيئاً أعم من ذلك هو ما تقدم . وبهذا يسلم الحديث من الاشكال المشهور الذى أورد عليه والذين جعلوا الحديث مشكلا هم الذين حسبوا أن الأكل هنا هو الأكل المعروف وأن الكافر يأكل كما يأكل المؤمن سبع مرات . فعلموا أن هذا المعنى ليس صحيحاً ، وهو خلاف المشهود . فأجابوا عن الإشكال أجوبة ليس فيها مقنع . منها أن طائفة قالت : إن الحديث مراد به كافر معين ومؤمن معين .

ولعلك تقول : هذا الذى تذهب إليه فى الحديث حسن لولا أن الرواية الأخيرة تعانده فيما يبدو فان ظاهرها أن الأكل مراد به الأكل بدليل هذا الذى شرب سبع حلبات — وهو كافر — فلما أسلم شرب حلاباً واحداً . فهذا كالتصريح أن الكافر يأكل كما يأكل المؤمن سبع مرات . فالأكل هنا هو الأكل ، والسبع هنا هى السبع .

فأقول لك : إن الأكل هنا جنس يتناول أنواعاً . يتناول الأكل حقيقة ، ويتناول اللبس ، والسكن ، والادخار ، والجمع ، وكل ما فيه تمتع . ودليل ذلك الآيات المتقدمة . وإذا كان ذلك كذلك فأحد أنواع الأكل الأكل المعروف ، كما فعل الرجل المذكور فى كفره وإيمانه ، والأنواع الأخرى التى يتناولها لفظ الأكل دل عليها قوله « والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »

وسبب الحديث لا يكون مخصصاً عمومه . فالعموم باق على حاله ، وإن كان السبب خاصاً لا عموم له . وبيان هذا أن الرسول عليه السلام

لما رأى ذلك الكافر وكثرة ما يأكل ذكر خلقاً من أخلاق الكافرين ، وهو التمتع باللذات المادية بشره وشدة . والمعانى تتداعى . وتفسير هذا قول العلماء « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » يريدون أن اللفظ يكون عاماً فى دلالته وإن كان خاصاً سببه . وغالب عمومات الشرع أسبابها خاصة . هذا من جهة الاكل . وأما من جهة العدد فلا ريب أنه لا يريد فى مثل هذا الاستعمال تحديد العدد . ومثل ذلك أن تقول : فلان يتكلم بسبعة ألسنة ، أو سبعة أفواه ، ويأكل فى سبعة بطون ، أو سبع أيد ، وينظر بعيون كثيرة ، ويمشى بأرجل عديدة ، وأمثال ذلك . لا شك أن القائل لذلك لا يقصد العدد المذكور ، وإنما يريد المبالغة . ومن فهم من هذه الأقوال العدد فهو كمن فهم من قوله تعالى (تجرى بأعيننا) وقوله (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) وقوله (وخلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً) العدد . وكان كذلك الوزير الذي قال له الحجاج : اقطع لسان هـذا . يشير إلى شاعر مدحه ونال إعجابه . فأخذ الوزير الموسى وآلة القطع وأحضر الشاعر ليقطع لسانه وكان الحجاج يريد أن يعطيه مالاً يكف لسانه عن ذمه .

وبما ذكرنا صار الحديث واضحاً ، وقاعدة من قواعد الأخلاق الاسلامية . وهى أن المؤمن العاقل الحكيم لابد أن يكون مستقلا من الشهوات المادية ، مستقلا من خدمة الدنيا لذاتها ، ليس بذلك الطماع الجشع ولا اللحز الشحيح ، ليس بعزيز عليه أن يضيع ماله فى وجوه البر والخير ، بل له شأن أسمى من ذلك ، وغرض أعلى ، وهو

تنمية الروح وتزكية العقل . ولا أهدم لأخلاق الأمم ، وللمدنية الفاضلة من الحرص على الماديات والشهوات .

احاديث تأثير العين

روى البخاري ومسلم عن رسول الله عليه السلام أنه قال « العين حق » وزاد مسلم « ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين » . وثبت فى البخاري وغيره عنه عليه السلام أنه كان يعوذ الحسن والحسين بهؤلاء الكلمات « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » ويقول « كان ابراهيم يعوذ بهن ابنيه اسماعيل واسحاق » . والأخبار فى هذا الباب تكاد تكون متواترة .

وقد اتفقت الأمم بالاجمال على أن للعين تأثيراً . فلا تجد أمة إلا وفيها من يعرف بذلك ، ومن يصدقه ويعترف به ، ويروي فيه الروايات الكثيرة العجيبة التي يستحيل أن تكون كلها كذباً ، وأن يكونوا تواطؤوا على الجهل والغلط والكذب فيها . بل يكاد يكون في كل بلدة من يعرف عنه ذلك الداء الوبيل ، والناس يحكون عنه الأشياء الكثيرة ، ويذكرون أنهم شاهدوها ، أو حدثهم من شاهدوها

وسمعنا من أناس كثيرين أنهم يعرفون أناساً لا تخطئ لهم عين حتى إنهم يقصدون لذلك . فاذا ما أراد إنسان الوقيعة بآخر أجر من يعرف بهذا للقيام بهذه المهمة ، فيقوم بها خير قيام ، ويقضي على تلك الفريسة بكلمة أو نظرة . وحدثني إنسان أنه كان فى قريته شخص

عرف بالحسد حتى إنه إذا مر فريق من الطير في السماء قال لهم : أى هذه الطيور تريدون ؟ فيشيرون إلى واحد . فيقول فيه كلمة ، أو ينظر إليه نظرة ، فيخر ذلك الطير صريعاً . وكذلك يصنع بالبهائم والروايات فى ذلك كثيرة . وكلنا يسمع من ذلك الشيء العجيب وإن كنا نرتاب فى صحة كثير منه .

ونحن لا نقول : إن جميع ما يروى فيه صحيح . وإنما نقول : إنه مستحيل أن يكون كله غير صحيح . ولا شك أن أغلب أهل الأرض يؤمنون بذلك . والذين ينكرونه هم طائفة قليلة من المتعلمين السطحيين ولا أظن أن جمهور النوع الانسانى يتفق على الخطأ القرون الطويلة ولئن جاز أن يتفقوا على الخطأ فى أمر عقلى نظري فليس بجائز أن يتفقوا على الخطأ فى أمر يرجع دليله إلى المشاهدة والحاسة . وأمر العين راجع إلى المشاهدة والحاسة . ولئن جاز هذا الذى لا يجوز فلن يجوز أن تجتمع الأديان كلها على الخطأ . وقد اجتمعت كلها على أمر العين ، والاصابة بها . والدين الاسلامي يقرر ذلك أصدق التقرير . وفى القرآن الكريم ما يومئ إليه . قال تعالى (قل أعوذ برب الفلق) السورتين . فقد أنزل الله فيه قرآناً ، وأمر رسوله بالتعوذ منه . وفى سورة يوسف حكاية عن يعقوب (وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) الآية . يقول طوائف من المفسرين : إنه خاف على بنيه العين إذا دخلوا مجتمعين ، فأمرهم أن يدخلوا مصر متفرقين لئلا تصادفهم عين حاسدة

وأما الطائفة المولعة بالانكار والجحود فقد كذبت أمر العين ، وأنكرت الحسد ، وعدت المصدق به من العوام ، ولم تعبأ بأن تصادم ديناً ، أو تصادم روايات كثيرة صحيحة ، واتفاق جماهير لا يحصون . لم تبال بشيء من ذلك . وليس معها من دليل على تكذيبهم ، وإنكارهم الانكار البات غير الاستبعاد القائم على الجهل المحض .

فاذا ما قيل لهم : من أين علمتم إنكار ما أنكرتم ؟ ! وما برهانكم على أن الديانات مخطئة ، والأمم غالطة ، والروايات كاذبة ؟ ! لم يكن لهم من جواب غير أن يقولوا : لا يمكن أن يصيب الشخص الآخر بغير اتصال وملامسة ، ولا يمكن أن يؤثر بالحسّيّ المادى إلا حسيّ مادي مثله نراه ونبصره بأعيننا . فاذا ماقيل لهم : ماالمانع من أن يؤثر المعنوي بالحسيّ ؟ ! وأن تؤثر الروح بالجسم وبالروح أيضاً من غير ملامسة ومقاربة ؟ ! وما المانع أيضاً من أن يؤثر الجسم بالجسم بلا اتصال ؟ ! أو ما المانع من أن ينبعث من روح العائن أو من عينه أو من جسمه أمر يصرع المعين وان لم نبصره ؟ ! ما المانع من ذلك وان كنت لا تراه ؟ ! وليس كل مالا يرى باطلا . وقد كان الناس قبل أن يخترعوا « الميكرسكوب » ينكرون « الميكروبات » لأنهم لا يبصرونها ولا يحسونها . ولو ذكرت لهم لكذبوا بها ، ولما آمنوا بها . أو ليس من « الميكروبات » ما دق على « الميكرسكوب » وما هو فوق « الميكرسكوب » ؟ ! أي إن من النسمات التي تعرف « بالميكروبات » التي بها تحدث الأمراض ما لم يشاهد إلى الآن ، وما لم يحس مع العلم

أنه يحدث الأضرار ويقتل الأحياء ؟ ! لو قيل ذلك لطائفة الجحود والانكار لم يكن لها من جواب فيه مقنع .

فيا هؤلاء المنكرون ! ماذا تنكرون من ذلك ؟ ! أو لسنا نرى الحي يموت بمجرد أن تفارقه الروح ، ويحي بوجودها فيه ؟ ! وهل رأينا الروح أو أحسسناها ؟ ! أو لسنا نرى الحي يهمد ، أو يموت موتاً أصغر إذا جاءه ذلك الشيء المجهول المعلوم الذي نسميه نوماً أو موتاً ، ويصحو ويقوم إذا ما فارقه ونحن لانحس ذلك ولانبصره ؟ ! أو ليس الساحر يؤذي المسحور من غير اتصال ولاتلاق ؟ ! أو ليس الهم يذيب الجسم ، والفرح ينعشه ويملؤه رونقاً وبهاء . والفرح والهم غير محسوسين ولا مبصرين ؟ ! أو ليست الذكرى تلعب بالذاكر لعب النكباء بالرمح الخطل ، والذكرى غير محسوسة ولا مبصرة ؟ ! أو ليس العقل يرفع صاحبه أو يخفضه ، والعقل غير محسوس ولا مبصر ؟ ! فماذا تنكرون بعد هذا ياهؤلاء ؟ ! إن من الأفاعي لنوعاً يخطف الأبصار ويسقط الأجنة من بطون أمهاتها عند المشاهدة والرؤية وهذا النوع هو الذي قال فيه رسول الله عليه السلام « اقتلوا الأبتر وذا الطفيتين من الحيات ، فانهما يسقطان الحبل ويلتمسان البصر » ؟ ! وإن لم يقنعكم هذا قلنا لكم : إن من الأشجار لشجرة تنفعل بالرؤية والمقابلة ، فتنكمش إذا نظر إليها ناظر ، وتذبل وتتضاءل . وقد ذكرت ذلك المجلات المصرية نقلا عن الغربية . وصورت هذه الشجرة متضائلة .

فان لم يقنعهم ماقدمناه قلنا لهم : أنظروا إلى التنويم المغناطيسى أنظروا كيف ينوم الشخص الآخر ، ويفقده حواسه ، ويتصرف فيه كما يرى ، بمجرد أن يقف أمامه ، وأن ينظر إليه ويفكر فيه . بذلك يقضى على شعوره ووجدانه ، حتى لايحس ضرباً ولا ألماً . وليس فى هذا التنويم شىء من الاتصال والملامسة ، وإنما هو تسليط روح على روح . أليس هذا هو مثل الحسد الذى ينكرونه ويجحدونه أثبته العلم إثباتاً لايتحمل النقض ؟!

إن التنويم المغناطيسى ، وتصرف المنوِّم فى المنوَّم هو من عمل الروح وتصرفها . وكذلك الحسد الذى يأبون الايمان به .

والروح لها شأن عجيب غامض . والزمان يفسرها شيئاً فشيئاً

والناس كلهم يلزمهم أن يؤمنوا بتأثير العين ، وبتأثير غير المباشر ، وبتأثير الروحى المعنوى في الحسىّ المادى . فانهم جميعاً يقولون : إن لهذا العالم المتقلب ، المضطرب ، الحى ، الميت ، المتحرك ، الساكن ، قاهراً وسلطاناً غائباً عن الأبصار والحواس يدبره كما نراه بلا اتصال ولامباشرة وليس تدبيره إياه موقوفاً على أن يتصل به ، وأن يباشره . إذاً مالهم أنكروا ذلك فى الأرواح وهم به مؤمنون ضمناً . هم بين أمرين : إما أن ينكروا رب العالم ومصرفه . أو ينكروا قولهم الذى أنكروا به تأثير العين .

ما يروى عن ابراهيم من الكذب

عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات . ثنتين منهن فى ذات الله . قوله (إني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هـذا) » قال « وبينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : إن هذا رجل معه امرأة من أحسن الناس . فأرسل إليه فسأله عنها . فقال : من هذه ؟ قال : أختى . فأتى سارة فقال : يا سارة ليس على وجه الأرض مسلم غيرى وغيرك . وإن هذا سألنى عنك فأخبرته أنك أختى . فلا تكذبينى . فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده . فأخذ . فقال : إدعي الله لى ولا أضرك . فدعت الله فأطلق . ثم تناولها الثانية ، فأخذ مثلها أو أشد . فقال : إدعي الله لى ولا أضرك . فدعت الله فأطلق . فدعا بعض حجبته فقال : إنك لم تأتنى بانسان إنما أتيتنى بشيطان . فأخدمها هاجر . فأتته وهو يصلي . فأومأ بيده : مهيم ؟ قالت : رد الله كيد الكافر فى نحره ، وأخدم هاجر » رواه البخارى . ورواه مسلم بسياق آخر مخالف لهذا السياق بعض المخالفة . والحديث صحيح الاسناد لا مغمز فيه . موافق لما فى القرآن الكريم . مفسر لما ذكر عن إبراهيم عليه السلام فيه

وقد كذب الحديث جماعة ، واعتلوا بعلل ضعيفة :

قالوا أولا — هذا خلاف قول الله تعالى فى إبراهيم من سورة

مريم (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) قالوا : والصديق هو الذى لا يكذب .

وقالوا ثانيا — لابد أن يكون الرسول معصوما من الكذب . ولو جاز عليه الكذب لما وثق بشيء من قوله . وهذا خلاف الاجماع ، وخلاف الدين

قالوا ثالثاً — إن الأمور المذكورة عنه عليه السلام ليست من مادة الكذب ، ولا مما يصدق عليه تعريفه . إن هى إلا معاريض . وفى المعاريض مندوحة عن الكذب . فالحديث الذى يقول إنها كذب لا يكون صحيحاً لمخالفته اللغة والواقع .

وقالوا رابعاً — إذا كان مثل ذلك يسمى معاريض ، ويسمى كذباً ، فلماذا اختار رسول الله فى حق خليل الله أبشع اللفظين ؟ ! ولماذا لم يقل أحسنهما ؟ ! ولماذا لم يسمه معاريض ؟ !

هذه هى شبهتهم التى كذبوا الحديث لأجلها .

ونحن نقول في جواب هذه الشبهات :

أما الأولى ، وهي أنه كان صديقاً نبياً . فلا ريب أن مغزى الآية هو الثناء على ابراهيم بفضيلة الصدق . بيد أن الصدق صدقان : صدق ممدوح ، وصدق مذموم . كما أن الكذب كذبان : كذب ممدوح وآخر مذموم . وقد يجب الكذب أحياناً ، كما يحرم الصدق أحياناً . وقد يذم الصادق تارة ، كما يحمد الكاذب أخرى . فالممدوح من الكذب هو ما كان فيه مصلحة دينية ، أو دفع مظلمة ، أو فساد . والمذموم من

الصدق هو ما جلب أحد هـذه المفاسد أو كلها . فلو سألك ظالم عن إنسان يريد أن يقتله ظلماً ، وكان يترتب على أن تصدقه قتله ، لوجب عليك أن تكذبه ، ولحرم عليك صدقه . ولو كان فى منزل أحدنا أحد أنبياء الله ، فجاء من يريد إيذاءه ، أو قتـله لوجب علينا ألا نخبر بوجوده ، ولكان الـكذب هنا هو الفضيلة ، والصدق هو الجريمة ولو سألك عدو للمسلمين عن موطن ضعفهم ، وعن مقتلهم ، لما جاز لك أن تخبره الخبر على وجهه وللزم التضليل لذلك العدو . ولو كان يترتب على كذب المصريين جميعاً أن يخرج الانجليز من مصر ، وأن يستقلوا فى بلادهم ، لكان كذب المصريين كافة من الواجبـات المقدسة الدينية الوطنية . ولو رأيت من يريد الفجور بامرأة ، وكنت قادراً على دفع الفجور بالـكذب ، للزم أن تكذب . وبالإجمال فكل كذب يجلب مصالح عامة للدين ، أو للوطن ، فهو من الفضائل وكل صـدق يجلب فسـاداً أو عدواناً للدين أو الوطن فهو من رذائل . وسر ذلك أن الـكذب ليس مذموماً لأنه مؤلف من « ك . ذ . ب » وأن الصـدق ليس ممـدوحاً لأنه مركب من « ص . د . ق » بل مدحهما وذمها لما يثمرانه من فساد وصلاح وقد كان رسول الله عليه السلام يورى فى حروبه ، ويقول « الحرب خدعة » وكان يجوز لأصحابه أن يكذبوا ، وأن يقولوا فيه وفى دينه ما تدعو إليه الحاجة إذا أراد المـكنة من أعداء الاسلام ، وصناديد الضلال الذين وقفوا في طريق دعوته ، وخانوا عهوده ، ونقضوا

مواثيقه ، وأسرفوا فى التأليب عليه وعلى دينه . كما أباح لمحمد بن مسلمة أن يقول ما شاء فى قتله كعب بن الأشرف اليهودى الذى آذى الله ورسوله ، وأخذ يدعو العرب وغيرهم لحرب الاسلام وحرب المسلمين بما أوتى من جاه ومال . وقد كان رسول الله عليه السلام راكباً مع أبى بكر رضى الله عنه فى سفر الهجرة ، فكان الناس يعرفون أبا بكر يجهلون رسول الله . فكانوا يسألون أبابكر من هذا الذى معك ؟ فيقول « هذا هاد يهدينى السبيل » ، فيفهمون أنه يريد الطريق . وهو يريد السبيل إلى الله . وقد صح فى مسلم عن رسول الله عليه السلام أنه قال : « ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمى خيراً » وفيه أيضاً عنه أنه لم يرخص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث : فى فى الحرب ، والاصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها

وإذا كان الصدق منه الممدوح والمذموم لم يمكن أن يمدح ابراهيم عليه السلام بالصدق المذموم البتة . والآية تريد مدحه ولا ريب . فلا تعارض بين هذا الحديث وبين هذه الآية كما ترى . وهذه الكذبات المذكورة هى من الكذب الممدوح المباح الذى قد دفع عدوان المعتدى ، وفيه حفظ عرض من أشرف الأعراض وخذلان كافر من أظلم الظالمين . ولهذا يقول : إنها فى ذات الله . فالآية فى شط ، والحديث فى آخر .

ثم إننا إذا أردنا أن نفهم قوله (صديقاً) من حيث مايدل الوضع

العربى لم يدل على ما قالوه . فان « الصديق » هو كثير الصدق مبالغة فى « صادق » وليس معناه المعصوم الذى لا يكذب

وفى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله عليه السلام أنه قال : « لا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » فهل معناه أنه يكون معصوماً من الكذب ، أو من الصدق . وأمثال ذلك فى لسان العرب . فمثلا « الطيِّع » هو كثير الطاعة مبالغة فى « طائع » وليس معناه « الذى لا يعصى أبداً » . وكذا « الكذاب » هو كثير الكذب وليس هو الذى لا يصدق . هذا عن الشبهة الأولى

وأما الشبهة الثانية ، وهى أنه لو كذب لما وثق بشىء من قوله فيقال نحن : لا نجوز عليه الكذب المذموم الممنوع ، ولا الكذب فى الوحي والتبليغ فيلزم ماقالوا . وإنما نجوز من ذلك مثل مافى هذا الحديث وهو الكذب الذى فيه دفاع عن الفضائل والآداب والأعراض والدماء من غير أن يكون منه شىء فى التبليغ فليس بلازم ما ذكروه .

وهذا كما نعلم أنه جائز لكل مسلم أن يكذب إذا كان فى كذبه مصلحة عامة راجحة على صدقه ، أو كان فيه دفع عدوان عن عرض أو دين أو فضيلة كما أسلفنا . وهذا لا يسلب جميع المسلمين العدالة وصفة الأمانة .

وأيضاً قد قامت البراهين على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون

فى التبليغ والوحي ، ولا يطعن فى عصمتهم ماذكرنا . وكل شيء يجب أن يكون موجوداً إذا وجد برهانه . وبرهان عصمة الأنبياء موجود مطلقاً فيجب أن تكون لهم العصمة مطلقاً . وهذا قول لا يرد ، إلا أن يزعم المخالف أنه ليس له برهان على عصمتهم إلا إذا كذب هذا الحديث ومافى معناه . وهو غير ممكن أن يقوله .

وأيضاً هذه الشبهة لاحقة النسيان والخطأ فى الاجتهاد . وقد ذكرنا أن الأنبياء قد ينسون ، وقد يخطئون فيما اجتهدوا فيه ـ لكن لايقرون على الخطأ ـ لافيما قالوه وحياً عن الله . فما كان جوابا عن النسيان والاجتهاد كان جوابا عن هذا الحديث سواء . هذا عن الشبهة الثانية

وأما الشبهة الثالثة ، وهي أن الأشياء المذكورة عن إبراهيم معاريض وليست من الكذب . فيقال : هذا أمر راجع إلى اللغة ، لا إلى النظر والعقل . ولا ريب أن المعاريض تسمى كذبا . فان المتكلم المخبر يعنى بكلامه معنى في نفسه ، ويريد أن يفهم من يخبره معنى . فان كان الواقع مخالفاً لمايعنى مخالفالما يريد أن يفهمه المخبر السامع ، فهذا هو الكذب المحض البرىء من الصدق ، وإن كان مخالفاً لما يريد أن يفهم السامع فقط فهو كذب من جهة التفهيم ، صدق من جهة مايعنيه . فهو كذب من جهة ، صدق من أخرى وهذا هو مايسمى بالمعاريض فى اللغة .

ولاريب أنه لو سألك سائل عن إنسان معك فقال لك : من هذا ؟ فقلت : هذا أخى . وأنت تريد أن تفهمه أنه أخوك من النسب ، وفهم

أنه كذلك ، وهو فى الواقع بعيد النسب عنك ، وإنما أردت أخوة الاسلام ، لكنت كاذبا ، ولشمل قولك هذا تعريف الكذب . ولو كان عليك لأحد دين ، فطالبك ، فقلت : ليس علىّ له شىء ، وأقسمت على ذلك ، لكنت كاذباً آثماً وإن كنت تعنى معنى آخر فى نفسك صدقا . وكذا أمثال ذلك فى الكلام . وأقوال ابراهيم عليه السلام هى من هذا القسم . ومن الاسراف الذى لا يرضاه الله أن نرد الأخبار الثابتة فى الاختلاف على موضوع لغوى لم يتثبت منه .

وأيضاً الذى يبدو من القرآن أن هذه الأقوال منه عليه السلام كذب محض فى ذات الله ، وفى دين الله ، لاذلال الكفر والضلال ، وليست من المعاريض ، ولا سيما قوله (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) والتآويل التى يحملونها هذه الآية لاتصح . وذلك كما كان بعضهم يقف فى القراءة على قوله (بل فعله) ويبتدىء بقوله (كبيرهم هذا) ولا يريد أن يكون (كبيرهم) هو الفاعل . ويجعل (كبيرهم هذا) مبتدأ وخبراً . وهذا ضرب من الالغاز والتعمية ، لا يوجد فى كلام من يريد أن يفهم مراده . وكما يقول فريق : إن قوله (بل فعله) مشروط بقوله (إن كانوا ينطقون) أى فهم لا ينطقون ، فهو لم يفعله . وهذان القولان مبنيان على أن إبراهيم كان عربى اللسان . وما كان كذلك . ومراد ابراهيم عليه السلام بقوله هذا أن يوبخهم ، وأن يفند آراءهم ، وأن ينبههم إلى غلطهم وضلالهم بأسلوب لا يضطرهم إلى الانجفال منه . لأنه إذا قال : إن الذى كسر الأصنام هو الصنم

الكبير عرفوا أنه لا يمكن الصنم أن يكسر شيئا ، ولا أن يفعل شيئا وعرفوا أنهم على ضلال فى عبادتهم هذه الاصنام حاسبين أنها تقضى لهم شيئا ، وتدفع عنهم شيئا ، وعرفوا أن الدعوى بأن كبيرهم هو الذي كسرها لا تقبل ، وعرفوا أن زعمهم فيها مايزعمون كذلك لا يقبل . فنتج المطلوب الذى كان يقصده عليه السلام ، وهو أن يعرفوا فى أنفسهم أنهم فى ضلال مبين ، وأن أصنامهم ليس لها أن تفعل ، ولا أن تعبد ، ولا أن ترجى . وهذا من محكم الرد على المخالف وحكيمه . ولقد أخذ هذا الرد مجراه ، وبلغ من أنفسهم ما أراده عليه السلام فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا (انكم انتم الظالمون) ولكن العناد سحبهم بعد الى ضلالهم والى مشاكسة الحق بعد عرفانه . وهذا شأن كثير ممن أضله الله قديماً وحديثاً (ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون)

وقد جاء فى صحيح مسلم فى حديث الشفاعة أن أحد كذباته عليه السلام هى قوله للشمس والقمر والكوكب (هذا ربى) من سورة الأنعام . ولم يذكر قصة الجبار . وهذا ظاهر فى أنه أراد الكذب الصريح فى ذات الله . وما يذكره بعض الناس فى الآية من التقدير « أهذا ربى ؟ » على أن هناك استفهاماً حذف فهو ضعيف جداً من جهة اللغة ومن جهة سياق الآية نفسها . وقوم ابراهيم كانوا يعبدون الشمس والقمر والنجوم ، فأراد عليه السلام أن يستدرجهم ، وأن يبطل ما يذهبون اليه بطريقة خفيفة لطيفة لا ينفرون منها ، ولا ينكرونها ، فيدعى لهم أولا أنه منهم ، وأنه على رأيهم ليأنسوا به وبما يقول ، وليستمعوا اليه

ثم يرجع على عقيدتهم بالابطال تدريجاً شيئاً فشيئاً ، فيبطل أولا ألوهية الكوكب لما يشاهده هو وهم فيه من أمارات التسخير والتصريف الاضطرارى لمصرف قاهر فوقه . وذلك أنه مسوق ومقود إلى جهة معينة ، فى مواعيد معينة ، فى سرعة معينة ، لا يعدوها ولا يقدر أن يعدوها . وهذا ظاهر عليه وعلى سائر ما نرى من المخلوقات . والاله لا يكون مسخراً مذللا مقهوراً . وهذا هو معنى (لا أحب الآفلين) ثم يفعل ذلك فى جميع معبوداتهم حتى الشمس التى هى أعظم ما يرى وأجمله وأضوؤه بذلك البرهان العجيب وهو ما يشاهد فيها من الضعف والسير البرىء من الاختيار الذى لا يمكن أن تخرج عنه . ومن نظر إلى الشمس وإلى سيرها بل إلى الأفلاك كلها علم ضرورة أنها مصرفة ومسوقة بلا اختيار وأنها تسبح فى أفلاكها سبوحاً قهرياً ليس لها فيه إرادة . وإلى هذا الاشارة بقوله (لا أحب الآفلين)

ولو أن إبراهيم بدأهم بالانكار والتجهيل . أو لو أنه أنكر آلهتهم مرة واحدة ، وجمعها فى كلمة الانكار ، لما كان لقوله أن يبلغ من أنفسهم مابلغ ، ولما كان له أن يظهر عليهم كما ظهر . ولهذا أعظم القرآن طريقة ابراهيم هذه . وقال فى خاتمة الآيات (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) فياليت من يدعون إلى الله وإلى الاصلاح الدينى أو الوطنى يقتبسون شيئاً من طريقة أنبياء الله ، ويسلكون مايسلكون فى دعوتهم . وأما قوله (إنى سقيم) من الصافات فنحن نذكر القصة من أولها ليفهم مغزاها

(وإن من شيعته لابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين وأقبلوا إليه يزفون قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم فأرادوا به كيداً فجعلناه هم الأسفلين)

والذى يبدو من سياق الآيات أنه كان هووهم فى مكان واحد لدى أصنامهم ولعل ذلك كان لعبادتهم . وأنه اليوم الذى يخرجون اليها ليرفعوا اليها النذور والتعظيم والعبادة كما يفعله أمثالهم اليوم فى بلادنا هذه فى الأولياء والصالحين ، وإن قوله (فنظر نظرة فى النجوم) هى النظرة المذكورة فى سورة الأنعام التى رأى فيها الكوكب والشمس والقمر ، وأبطل ألوهيتها . ثم إنهم بعد ذلك الموقف وذلك الحجاج أرادوا الرجوع إلى مساكنهم ، والانفضاض من حول أصنامهم . وكان ابراهيم قد صمم فى نفسه على أن يحطم أصنامهم ، وأن يصيرها جذاذاً إذا رجعوا وخلفوه ، فأراد أن يتخلف عنهم ، فقال لهم : إنى لا أقدر على القفول لأنى مريض فلا أبرح مكانى هذا . فلما ذهبوا وتركوه راغ إلى أصنامهم فأعمل فيها معول الحق فحطمها تحطيما وصيرها هباءاً إلا أكبرها ليتهمه بما فعل . ثم إنهم علموا بما فعل ، فجاءوا إليه مسرعين محنقين ، فطفق يجادلهم ويحاجهم ، فاقبلوا

منه حجة ولا برهاناً ، وما كان لديهم ، وما كانت حجتهم إلا أن أججوا له ناراً وقذفوه فيها ، وهذه هي حجة المبطلين دائماً في السابق واللاحق ، في الأولين والآخرين . فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ونجاه مما أرادوا به ، وجعلهم هم الأخسرين. وكذلك العاقبة تكون أبداً للمتقين والفوز للصابرين .

هذا هو الظاهر من الآيات ومن القصة من غير أن نراجع تفسيراً أو أن نسمع فيها كلاماً من أحد . فقوله (إني سقيم) كذب في ذات الله ، كما قال رسول الله عليه السلام ، وكما ظهر من الآيات . هذا عن الشبهة الثالثة .

وأما الشبهة الرابعة ، وهي قولهم : لماذا اختار أبشع اللفظين ؟ فيقال : إن قوله « كذب في ذات الله » ليس فيه بشاعة ، وإنما يكون بشعاً لو قال « كذب » وسكت . أما إذا ذكر أن الكذب كان في ذات الله ، ولأجل الله ورضوانه فما فيه شيء ، وليس بحرام . بل قد يكون جائزاً ، وقد يكون واجباً إذا ما كان الصدق فيه فساد في الأرض أو خذلان لحق كما قدمنا . وكيف يكون الواجب بشعاً ، وكيف لا يكون التحديث عنه جائزاً لا شيء فيه .

وأيضاً إن مثل هذه العبارة ضرب من ضروب المدح والثناء ، ضرب من الاطراء . فاذا قيل : لم يكن من فلان في حياته كلها كذب — لا في هزل ولا في جد — إلا ثلاث كذبات كان ذلك القول في أقصى عبارات المدح. وهذا كما يقال « كفى المرء نبلا أن تعد معايبه »

فحصر عيب الانسان لايكون عيباً . فاذا قيل : لم يعص فلان ربه إلا مرتين فى حياته كان هذا القول مديحاً قطعاً . وليس معناه أن الكذب نفسه ممدوح ، ولكن المدح يؤخذ من العبارة كلها .

وأيضاً قد ذكر القرآن فى حق الأنبياء عبارات قد تكون مثل نسبة الكذب إلى ابراهيم وقد تكون أشد . فقال فى خاتمهم (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر) وقال (واستغفر لذنبك) وقال فى آدم (وعصى آدم ربه فغوى) وقال (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك) وهذا فى القرآن غالب وحينئذ يقال : هذه الكلمات إما أن تكون على ظاهرها ، وأنه وقع منهم ذنوب ، فلتكن كذبات ابراهيم منها ولتكن من الذنوب الجائزة فى حق الأنبياء . وإما ألا تكون على ظاهرها ، وأنهم ليست لهم ذنوب فى الحقيقة ، وتلك الآيات مذهوب بها عن ظاهرها . فيقال : إذاً لماذا اختار هذا التعبير البشع الذى يوهم النقصان ؟ ولماذا لم يأت بالعبارات البعيدة عن ذلك ؟ وهذا السؤال فى الآيات كالسؤال فى الحديث . فما كان جوابا عن الآيات كان جوابا عن الحديث .

حديث الذى حرق نفسه

عن أبى هريرة عن رسول الله عليه السلام قال : « قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله : إذا مت فحرقونى ، ثم اذروا نصفى فى البحر ونصفى فى البر ، فوالله لئن قدر الله علىّ ليعذبنى عذاباً لا يعذبه أحداً من

العالمين . فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم . فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ثم قال : لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يارب ، وأنت أعلم . فغفر الله له » رواه البخارى ومسلم . ورورياه أيضاً من حديث أبى سعيد . ورواه البخارى عن حذيفة .

قد عد هذا الحديث قوم مشكلا فان ظاهره أن الرجل كان شاكا فى قدرة الله لأنه قال : لئن قدر الله عليَّ . وقد غفر له . ومن شك في قدرة الله لم يكن مسلماً . ومن لم يكن مسلماً لم يكن أهلا لأن يغفر له . فالحديث من المشكلات .

فأجابت طائفة قالت : إن « قدر » هنا بمعنى ضيق كقوله تعالى (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) وقوله : (وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن) وقوله فى ذي النون (إذذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظامات) كل ذلك صائر إلى معنى ضيق .

وهـذا القول ضعيف لأن تقدير الكلام عليه « لئن ضيق عليَّ ليعذبنى » وهذا يقرب من اتحاد الجزاء والشرط ، لأن التضييق هاهنا هو التعذيب ، فيرجع تقدير الكلام إلى « لئن عذبنى ليعذبنى » وأيضاً إن التضييق لا يعبر به فى الكلام الفصيح عما فى الآخرة ، وعما بعد الموت . وإنما يستعمل في الدنيا وضيقها وفقرها وبؤسها . وأما الآخرة ففيها العذاب والآلام والنيران الحامية . فما معنى التضييق فى الآخرة على كل حال سياق الكلام يأبى هذا القول .

وقالت طائفة : كان جائزاً فى الشرائع الأول أن يغفر لمن كفر .

وهذا الرجل الذى شك فى قدرة الله كان من بنى اسرائيل . وهذا قول لا يلتفت إليه .

وقالت طائفة : إن الجاهل قد يعذر بجهله ، وإن جاء كفراً ، مادام غير متعمد وهذا الرجل كان جاهلا . فهو معذور غير مأخوذ . وهذا القول كالأول لا يعتد به . ولو صح لنجا اليهود والنصارى وطوائف الكفر الذين كفروا بجهالة وما كانوا عالمين .

وقالت طائفة : إنه قال ذلك القول فى حالة وجل وخوف وغيبوبة فغلط لسانه ، وتفوه بما لم يرده . وهذا كالرجل الذى قال « اللهم أنت عبدى وأنا ربك » من شدة الفرح والأعمال بالنيات . والله لا يؤاخذ إلا بما قد عقد عليه القلب ، لا بما سها به اللسان . ولا يقرب من الصواب أن يكون مقام هذا الرجل مقام من يغلط لسانه ، ومن يقول مالا يريده جنانه . ومن البعيد الذى يضاف إلى المستحيل أن يكون ذلك القول غلطاً لسانياً لم يقصده القلب .

الجواب الصحيح :

والجواب الصحيح أن الكلام فيه شىء من المجاز ، وأنه قد وضع اللازم فيه موضع الملزوم ، أو وضع السبب موضع المسبب ، وأن تقديره « لئن جمعنى ليعذبنى عذابا » فوضع القدرة موضع الفعل ، لأن الفعل تلازمه القدرة ، ولا يمكن أن يكون فعل بلا قدرة . فاذا كان فعل علمنا أن هناك قدرة . واذا علمنا أن هناك قدرة علمنا أنه يجوز أن

يكون فعل ، وإذا امتنعت القدرة امتنع الفعل ، وإذا امتنع الفعل فليس بلازم أن تمتنع القدرة . ومثل هذا التوسع فى الكلام مألوف معروف عند العرب ، شائع فى مخاطباتهم ، بل هو موجود فى كلام الناس اليوم . فهم يقولون : هل تقدر أن تذهب معى ؟ وهل تقدر أن تذهب إلى مكان كذا ؟ وأن تفعل كذا ؟ وهل تقدر أن تقول لفلان وأن تكلم فلاناً ؟ ويقولون : إنك لاتقدر أن تقول لى مقالة كذا ، ولا تقدر أن تكتب فى موضوع كذا . وأمثال هذا الكلام الشائع . يقولون ذلك لمن يستطيع أن يفعل وأن يعمل ، وهم يريدون بالقدرة هنا الفعل ، وانما عبروا بها عنه لأنها لازمة له وسابقة ولا يكون إلا بها . فكذلك معنى قوله « لئن قدر على ليعذبنى » أى لئن جمعنى وحاسبنى ليعذبنى وقد جاء فى القرآن آية مثل هذا الحديث تماماً قال الله فى آخر سورة المائدة (إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) وما كان الحواريون شاكين فى أن الله يستطيع أن يفعل ذلك ، وإنما أرادوا (بيستطيع) يفعل ، ولا خلاف

وقد حسب هذا الرجل أنه إذا فرق نفسه ذرات فى القفار والبحار كان أهون على الله من أن يجمعه وأن يحاسبه ، وكان أقل فى نظر نفسه من أن يعبأ الله بجمع تلك الأجزاء الحقيرة الضائعة المبعثرة . هذا ما كان حسب ، وما كان قدر فى عقله . ولا يمكن أن يكون شاكا فى قدرة الله . والحديث يدل على أنه مؤمن به خائف منه ومن عقابه ، مؤمن بعذابه وحسابه . حتى إن القصة يتبادر منها أنه كان ملياً بسيطاً ليس

بالفيلسوف الباحث . ومثل هذا لا يكاد يصح أن يكون منكراً لقدرة الله . هذا تحقيق كلمة القدرة هنا

شبهة أخرى

فإن قلت : ما قلت فى كلمة القدرة لا بأس به إلا أن فى الحديث إشكالا آخر . وذلك أن صنعه هذا يدل على أنه كان شاكا فى بعثه وبعث من تفرقت أجزاؤه ، ولو لم يكن كذلك لما حرق نفسه وذراها . وقوله « لئن قدر عليّ » التى فسرتها بالفعل يدل على شكه أيضا وإذا كان شاكا فى البعث فكيف غفر الله له والشك فى البعث كفران ؟ وهل الكافر يغفر له ؟

قلت : أغلب الناس لا يعرف دليل البعث إلا من الشرع ، ولا يعرفه من العقل . فالبعث عند هذا الصنف من الأمور السمعية النقلية لا الأمور العقلية . فلا تقوم الحجة عليه إلا بأن يطلع على السمعي القائل بذلك . أما إذا جهل السمعى ، وأنكره بناء على جهله ، فلا تقوم عليه حجة . وهذا الرجل ما كان عالماً بدلائل البعث الشرعية ، ولم يعرفه بعقله ، فشك فيه جاهلا ، فكان معذوراً . ومثل هذا من شك فى بعض أحوال الآخرة ، وأهوال يوم القيامة ، وصفات الجنة والنار ، لأنه لم يعرف دليلها النقلى . فمن شك فى عدد أبواب النار أعاذنا الله منها لأنه لم يعلم الآية التى ذكرت عددها ، أو شك في الصراط وفى صفته لم يكفر . ولا خلاف فى ذلك

شبهة ثالثة فى الحديث

وهي أنه يقول : إن الرجل لم يعمل خيراً قط . والتوحيد والايمان بالله وبالرسل والملائكة والكتب من أعمال الخير ، فظاهر الحديث أنه لم يؤمن بهؤلاء . كما أن ظاهره أيضاً أنه لم يأت بأركان الاسلام : الصلاة والصيام والزكاة والحج . فكيف يغفر له حينئذ ؟ !

عن هذا جوابان :

الأول — أن يكون المراد أنه قد جاء بحسنات وسيئات ، فساوت الحسنات السيئات ، فذهبت بها ، ولم تبق منها حسنة ، وصار كمن لم يعمل خيراً قط ، فقال إنه لم يعمل خيراً . ونظير ذلك : رجل يكسب كل يوم مائة قرش ، وينفق فى جانب آخر كل يوم مثلها ، فاذا ما استمر كذلك سنة وأردنا أن ننظر فيما كسب في هذه المدة ، فاننا نقول بعد الحساب : إن هذا الرجل لم يكسب شيئاً قط . وإذا فرضنا أن مواليد الأمة المصرية مائة ألف وموتاها كذلك فى سنة ١٩٣٥ فانه يصح لنا أن نقول : إن الأمة المصرية فى السنة المذكورة لم يأتها عدد جديد ، أو لم يولد لها ، وأمثال هذه العبارات . وربما فسر هذا ما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال يوماً لأصحابه « أتدرون من المفلس » قالوا : المفلس فينا يارسول الله من لا درهم له ولا دينار . فقال : « المفلس من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا وسفك دم هذا ، وأكل مال هذا . فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته

فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه وطرح فى النار » رواه مسلم . والمفلس هو الذى لا شيء له . فصار هذا العامل الذى استحق أن تضيع أعماله كأنه لا عمل له وكأنه لم يعمل خيراً قط . وبهذا الجواب تنحل شبهات كثيرة عن أحاديث معروفة . فليكن من القارىء على ذكر .

والجواب الثاني — إن العمل إذا أطلق إطلاقاً ، كما إذا قيل عمل فلان عملا صالحا ، أو عملا سيئاً ، لا يذهب عند هذا الاطلاق إلا لأعمال الجوارح من صلاة وصيام وحج ونظائره ولا يذهب لأعمال القلب من الايمان والتصديق والرحمة وحب العدل والحق وأمثاله . لهذا كثيراً ما يقرن القرآن العمل الصالح بالايمان مثل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآيات . إذاً مراده هنا أنه لم يعمل عملا مما تقوم به الجوارح لا أنه لم يؤمن .

فاذا قلت : وهل تارك الأعمال كالصلاة والصيام يغفر له ؟ ! أوليس تارك ذلك كافراً كما صح عن رسول الله عليه السلام بالأسانيد الصحيحة ؟ !

قلت أولا : لعل هذا الرجل ما كان آمن إلا فى آخر حياته . فلم يمكنه أن يؤدى عملا من الأعمال . وذلك ككافر أسلم بعد ما طلعت الشمس فمات قبل أن تجب صلاة الظهر فانه يغفر له ، وهو لم يعمل خيراً قط

وقلت ثانياً : لعل أعمال الجوارح فى الأمم الذاهبة ليست شريطة للغفران والقبول

وبهذا زال والحمد لله من الحديث كل إشكال ، وأصبح حديثا جليلا دالا على ما فى عفو الله من سعة ، وعلى ما فى خوفه من أجر ومثوبة . والخوف من الله هو لباب العبادة ، ومادة التقوى . فمن لا خوف له لا تقوى له

تعذيب الميت ببكاء الحى عليه

روى البخارى ومسلم وغيرهما من طرق مختلفة عن جماعة من صحابة رسول الله ، عن رسول الله عليه السلام أنه قال : « إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه » وفى رواية « ببعض بكاء أهله » وفى لفظ « يعذب ببكاء الحى عليه »

قامت الدلائل القطعية الدينية التى لا تتحمل الجدال على أن المرء لا يؤاخذ إلا بما قدمت يداه ، وبما جناه . والقرآن الكريم دال بجملته على ذلك . لهذا كان الحديث مشكلا جد الاشكال . لأن ظاهره يقاوم هذه القطعيات الدينية . فافترقت الآراء هنا ، وكثرت الأقاويل فى شرحه والعثور على معناه .

وقد أنكرته طائفة ، منهم عائشة زوج النبى . رواه عنها البخارى ومسلم . وقالت حسبكم القرآن فانه يقول (ألا تزر وازرة وزر أخرى)

وقالت طائفة : إنما يكون ذلك إذا أوصى الميت أهله بالبكاء عليه فانه يعذب حينئذ وإلا فلا . وكان من عادة العرب أن يوصوا بالنياحة عليهم ، وهو موجود فى أشعارهم

وقالت طائفة : هذا لمن أهمل تعليم أهله أن النياحة محرمة . فانه يعذب لانه لم يعلم أهله مايتقون ، وما يجلب سخط الله ، وهو راع لهم مسئول عن رعيته ، وهو القوام عليهم

وقالت طائفة : هذا فى الكفار والمشركين لا المسلمين

وقالت طائفة : هذا وارد فى انسان بعينه ، والألف واللام فى الميت للعهد لا للاستغراق

وقالت طائفة بظاهره ، وعقلت أن الميت يعذب بما يبكى عليه ولم تكترث أن تخالف الدلائل القطعية . وقد قيل غير ذلك .

وهذه أقوال لا تطمئن النفس إلى شيء منها ، ولا يسكن عندها الضمير

الجواب الصحيح

والجواب الصحيح الذى لا يعدل عنه أن العذاب هنا هو التألم لا العقاب ، فان الميت يسمع بكاء الباكين عليه ، ويسمع مايقولون فيه ، كما يسمع قرع نعال الدافنين إذا انصرفوا عنه ، فيتألم لذلك ، ويحزنه بكاؤهم شفقة عليهم ورحمة بهم كما يتألم لو كان حياً . والتعذيب هو الايجاع والايلام أوسع معنى من العقاب وليس من ريب أنه يوجعه بكاء أحبابه ، ويؤلمه إذا سمع منهم ذلك ، وسماع الأموات لبكاء الباكين له نظائر فى الدين . فقد صح فى الحديث أن الميت يسمع قرع نعال دافنيه إذا رجعوا عنه وصح أن رسول الله عليه السلام خاطب كفار بدر توبيخاً لهم وتعذيباً وإيلاماً ، وقال لأصحابه « ما أنتم بأسمع منهم

لما أقول ولكنهم لايجيبون » وقد جاء هذا المعنى مصرحاً به في حديث رواه الطبراني ، وحسنه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى . قال صلى الله عليه وسلم فيه « أيغلب أحدكم أن يصاحب صويحبه فى الدنيا معروفا فاذا مات استرجع فوالذى نفسى محمد بيده إن أحدكم ليبكى فيستعبر إليه صويحبه فياعباد الله لاتعذبوا موتاكم » وهـذا فاصل فى المسألة وفى معنى هذه الأحاديث

وفيها تفسير آخر لعله جيد هو أن المراد بالميت هنا المحتضر لا الميت حقيقة ، كقوله صلى الله عليه وسلم « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» رواه مسلم . وقوله فى حديث رواه الدارقطنى « اقرؤا على موتاكم يس » فالموتى فى هذين الحديثين هم المحتضرون . وهذا استعمال جائز لغة وشرعا . وهو استعمال مشهور . ومعنى الحـديث حينئذ أن المحتضرين يتألمون إذا بكى عليهم أهلوهم ، ويزيدهم ألماً على ألمهم . فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يؤلموا موتاهم ، وأن يضاعفوا ماهم فيه رحمة وشفقة بهم .

فان قيل : هذا حسن لولا أن فى الروايات مايدفعه . وذلك أن فى إحدى روايات الحديث « ان الميت يعذب فى قبره ببكاء الحى عليه »

قلت : الذى يغلب أن هذه اللفظة غير محفوظة ، وإنما جاءت سهواً من الرواة ، والسهو يكثر فى مثل هذا . ولهذا نرى البخاري روى الحديث ولم يرو هذه اللفظة وإنما رواها مسلم فى بعض ألفاظه ومسلم يتساهل كثيراً فى التوابع والشواهد . ويزيدنا اطمئناناً إلى أن

هذه اللفظة سهو أن أمثالها يقع فيه السهو كثيراً . وذلك أن الراوى يحسب أن العذاب المذكور لا يكون إلا فى القبر ، فيتبادر إلى ذهنه وإلى لسانه زيادة ما حسب أنه هو المراد . وعلى هذا يخلص الحديث من شوائب الاعتراض . وحيث وجدنا للخبر الصحيح مذهباً سليما من الشبهة وجب المصير إليه .

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن رسول الله عليه السلام أنه قال : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين »

اعتاص هذا الحديث على قوم . قالوا : إن أراد حقيقة اللفظ ، وأن المؤمن اذا لدغته حية أو نحوها من جحر لم يلدغ منه مرة أخرى ، كان هذا غير صحيح . فقد يلدغ المؤمن من جحر مرات . ثم أي فرق بين المؤمن وغيره فى هذا ؟ وإن أراد مجاز اللفظ ، وأن الحديث مثل مضروب ، يراد به أن المؤمن لا يخدع مرتين ، وأنه إن خدع مرة فلن يخدع غيرها ، كان أيضاً غير صحيح . فقد نرى المؤمنين اكثر الناس انخداعاً فى هذا العصر . وهذا الغرب يتلاعب بالشرقيين المؤمنين ، وينتقل بهم من خديعة إلى خديعة أعظم ، وهم لا يتعظون . وهذا الشيطان أبداً خادعهم . فالحديث إذاً مشكل جداً

ونحن نقول : الحديث صحيح الاسناد ، صحيح المعنى . وهو من جوامع الكلم التى أوتيها رسول الله عليه السلام ، ومن العبارات التى

يعجز عن بلوغها فحول البلغاء . وبيان ذلك أن المؤمن حقاً يجب أن يكون فطيناً ، ألمعيا ، ذكياً ، لا يخدع ولا يغلب على أمره ، بل يحتاط لنفسه ، ولدينه ، ولعرضه ، ولوطنه ، ولكل حرمة يجب الاحتفاظ بها ، والرعاية لها . ولا يكون كأقوام نراهم اليوم بلهاء مغفلين ، ينقادون لكل خادع ويقعون فى كل حبالة . يخدعون فى دينهم ، وفى أعراضهم ، وفى أوطانهم وفى أموالهم وأنفسهم ، ثم لا يستيقظون ، ولا هم يتعظون ، تخدعهم الساسة على بلادهم ، ويخدعهم المبشرون على دينهم ، وتخدعهم الدنيا . وهم هم لهذه الخوادع كلها أذلة منقادون ، وفى أيديها سادرون داخرون . فليس هؤلاء من المؤمنين حقاً الذين اذا قيل « المؤمنون » فهم المعنيون . وقد جاء فى الخبر أن المؤمن كيس فطن . وقد وصف القرآن المؤمنين بالعقل والعلم والمعرفة ، ووصف الكافرين بالغباوة والجهالة والبلادة فى غير ما آية من كتاب الله عز وجل . وهل يكون عاقلا من لا يبالى بالآخرة ، وهى الحياة التى لا تنقطع ، وينفق همه وهمته فى الدنيا وهى الفانية الخادعة ؟ وليس بعاقل من آمن بالساعة وبالجنة والنار ، ثم لم يجعل ذلك هو الأمر الذى له يهتم ويتعب وينصب ، بل ليس بعاقل من يشك فى الآخرة وثوابها وعقابها ، ثم لا يبحث إلى اليقين ، ولا يحتاط لنفسه ، ويأخذ لها الحيطة . ونحن نحسب من يقدم على الشر الذى يشك فى وقوعه فيه أحمق . فكيف بمن آمن بالآخرة ، وجنتها ، ونارها ، ثم نسى ذلك ؟ ! أوليس ذلك أوفر الخليقة حمقاً وغباء ؟ !

فالحديث وصف للمؤمنين بالفطانة ، والرزانة ، والتثبت ،

والاحتياط . فهو لا يريد الجحر حقيقة ، ولا يريد العدد حقيقة ، ولا يريد اللدغ حقيقة ، بل هو أعلى من ذلك هو مثل — كما رأيت — لحال المؤمن الصحيح الايمان . فحاله الفطنة ، والرزانة ، والتدبر فيما يأتى وما يذر . يفكر ثم يعمل . يفكر في المخرج قبل أن يصمم على المدخل فلا يتقرب إلى الله بعبادة ، أو قربة ، حتى يعلم أن ذلك طاعة لله ، وأن الله طلبه من عباده ، فلا يبتدع ولا يخترع ، ولا يقول على الله قولا حتى يعلم أن الله قاله ، أو أن رسوله قاله ، ولا يقطع أمراً قبل أن يعرف أنه نافع لدينه أودنياه ، بل يعقل ذلك كله ، ثم يقدم عليه مطمئنا رشيد الخطوة . فلا يهوى فى غضب الله ، أو فى إيذاء نفسه وأهله وصحبه . ذلك هو المؤمن حقاً ، وذلك هو ما يعنيه حديث رسول الله . وقد كان المؤمنون الأولون كذلك ، بل فوق ذلك ، فأحرزوا الدنيا ، وجنة الأخرى ، وكانوا ملوك الدنيا ، وملائكة الأخرى ، أو ملوك الأرض ، وملائكة السماء

والذين جعلوا الحديث مشكلا هم الذين حسبوا أن العدد مراد حقيقة ، وأن الجحر مراد حقيقة ، وأن اللدغ مراد حقيقة . والحق أن الحديث لم يعن من ذلك شيئاً ، وإنما عنى ما ذكرنا ، وبه خلص الحديث من الاشكال ، وصار قاعدة من قواعد أخلاق المؤمنين العالية . وهو صحيح سواء أقيل : إن الحديث على الإخبار ، وإن المعنى أن ذلك هو شأن المؤمنين ، ووصفهم اللازم الذى امتازوا به ، على شرط أن نعنى بالمؤمنين المؤمنين حقاً ، أم قيل : إنه على النهي ، وان المقصد نهي المؤمنين عن

أن يكونوا بلهاء مغفلين . والقولان صحيحان شرعاً ولغةً . والحديث عليهما صحيح .

وليعلم القارىء أن العدد لا يراد حقيقته كثيراً . فقد قال فى القرآن (ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وقال (ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) وقال (أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) وقال (ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير) ومن ذلك على قول للنحويين « لبيك وسعديك » . وأمثال ذلك كثير ، وهو لا يراد به حقيقة العدد ، وإنما يراد التكثير ، أو مطلق العدد . والحديث من هذا النوع . فصح معناه وسنده .

تحريم الجنة على العاصى

صح عن رسول الله عليه السلام أنه قال « لا يدخل الجنة نمام » وأنه قال « لا يدخل الجنة قاطع رحم » وأنه قال « من قتل معاهداً ذمياً لم يرح رائحة الجنة » هذه الروايات فى الصحاح وغيرها . وأمثالها لا يحصى عدده . وانما ذكرنا الروايات الثلاث نموذجاً لنذكر الجواب عنها ، ليكون جوابا عن أمثالها مما لم نذكره إذا مر على القارئ إن شاء الله

هذه الروايات وما فى معناها مشكلة فى الظاهر . فان ظاهرها أن من عمل أحد الأعمال المذكورة حرمت عليه الجنة ، ولم يدخلها أبداً ومعنى هذا أنه يخلد فى النيران ، لأن الناس فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولا جرم أن هذا خلاف قطعيات الدين ، وخلاف إجماع أئمة المسلمين . والنصوص متظافرة على أن العصيان ليس كفراً ، وأن العاصى يدخل الجنة ، وإن طال مكثه في النار ، مالم يتلبس بكفر أو إشراك .

وقد اجاب العلماء عن هذه الأحاديث اجوبة كثيرة ، وأكثرها متكلف لا تقبله النفس المفكرة . واقرب مايقال فى ذلك مايأتى :

أولا — يجوز أن يكون ذلك كناية عما يوجب النار ، وعما يحرم الجنة . فان إسراف المرء فى النميمة ، وهى التحريش بين الناس ليتقاتلوا ويتعادوا . وكذا قطع الأرحام ، والتضييع لها ، وقتل المعاهدين الذميين الذين أعطوا ذمة الله واطمأنوا إليها : نعم إن اسراف المرء فى ذلك كله يدل على أنه لا يرجو لله وقاراً ، ولا يخاف له عقاباً ، ولا يرجو منه ثوابا ، ولا يذكر جنة ولا ناراً ، وإلا نهاه بعض ذلك عن أن يتعاطى تلك الفواحش ، وأن يثابر على هذا المخازى ، بلا توبة رادعة ومن كان كذلك كانت الجنة عليه حراماً ، وكان للنار أهلا . وليس ذلك لأنه نمام ، وعقوق ، وقتال للمعاهدين فقط . بل لأن فعله ذلك شهيد بأنه قليل الاكتراث بالله وبثوابه ، وعقابه ، وفي جنته ، وناره ، وإلا لكان له من ذلك واعظ يعظه ، وزاجر يزجره . ويقارب هذا

قول الله تعالى (ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) ألا يظن هؤلاء الظالمون الباخسون الناس أشياءهم أنهم راجعون إلى الله فمحاسبهم على القليل والكثير ؟ على القطمير والنقير ؟ على الخير والشر ؟ كلا . فانهم لو علموا ذلك لكان لهم منه واعظ يعظهم ولما ظلموا أحداً . فان النفوس مجبولة على أن تتقى الشر وإن قل ، وأن تحرص على الخير وإن قل . فمن لم يحرص على الجنة ، ويتق النار ، دل على أنه غير مؤمن بهما . وفى هذا المعنى قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون) وقوله (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وقوله (وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون) وقوله (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون) وشبائه ذلك فى القرآن يعز حصره . يجعل الصلاح دليلا على صدق الايمان وثباته ، والفجور دليلا على قلة الايمان وتضعضعه

فكذلك الأخبار المذكورة تعنى أن هجوم الانسان على هذه السيئات بلا تأثم يدل على أن إيمانه قليل أو مفقود فهو لايدخل الجنة لذلك ، لا لتلك السيئات . ولهذا كثيراً مايقول رسول الله عليه السلام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفعل كذا ، كقوله « من كان يؤمن

بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »

فأعمال البر دليل الايمان ، وأعمال الفجور دليل الجحود والكفران . وفى معنى ذلك قول الشاعر :

تعصى الاله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

فكل من ادعى شيئاً ، ولم يأت بدليل دعواه ، كان كاذبا . ودليل الايمان بالله حقاً ، وباليوم الآخر ، وبالجنة والنار هى الأعمال . فان من آمن بأن عملا من أعمال الدنيا فيه غناه فلا بد أن يجد فى طلبه ، وإن لم يفعل لم يكن مؤمناً بذلك ، إلا أن يكون به جنة . وفى أول الأنفال (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ، إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً) وقال (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) إلى قوله (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) وبهذا تفسر تلك الأحاديث التى اعتاصت على كثير من العلماء ، وتحيروا فى الجمع بينها وبين أصول الدين . مثل قوله صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو

مؤمن » وقوله عليه السلام « من رغب عن أبيه فقد كفر » وقوله « اثنتان فى الناس هما كفر : الطعن فى الأنساب والنياحة على الميت » وقوله « من ترك الصلاة فقد كفر » وأمثالها .

ولا ريب أن من واظب على ترك الصلوات ، وأركان الاسلام ، وعلى الزنا ، والخمور ، والسرقات ، والنميمة ، وقطيعة الأرحام بلا توبة ، قليل الايمان ، بل فاقد الايمان . فان المؤمن حقاً الذى يخاف الله ويخاف مقامه ، إن وقع فى شيء من ذلك لم يلبث أن يعود إلى ربه ، وإلى عقله ولم يلبث أن يمد إلى الله يد المتاب ، كما قال (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك أعتدنا لهم عذاباً عظيما) وقال : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) فالجنة معدة للمؤمنين الذين لا يصرون على المعصية ، بل إن قارفوا منها شيئاً لم ينشبوا أن يتوبوا لأن إيمانهم يدفعهم إلى التوبة وأما من أصر على محاربة الله ومخالفته فليس بمؤمن حقاً ، وإنما يدعى ذلك ادعاء ، ومثل هذا لا يستحق الجنة .

وتستطيع أن تتصور هذا المعنى فى إنسان يدعى حبك وصداقتك في حين أنه لا يزال يخالفك ويسعى فى إبطال أوامرك وإتيان ما تكره ومجانبة ما تحب . فهل تصدق أن هذا صديق وحبيب حقيقة ؟! وهل يمكن أن يكون كذلك ؟! اللهم لا . وتقدر أن تفهم ذلك أيضاً فى نفسك فانك واجدك تتفانى فى خدمة من تحب ، وتستسهل الصعب فى اكتساب مرضاته ، وتتقى طاقتك إغضابه ومخالفته . فان وقع منك شيء يدنى من غضبه ، أو يجرح شعوره ، لم تتردد في أن تتوب ، وأن تبسط إليه يد الاعتذار . فمن كان محباً لله ، حريصاً على رضاه ، لم يكن منه أن يصر على مخالفته . هذا ظاهر . وهذا أحسن محمل لهذه الأخبار ، وأقربها إلى الشرع واللغة والعقل

الرأى الثانى

أن النفى واقع على حالة من الحالات ، وعلى زمن من الأزمان ، لا على كل الحالات ، ولا على كل الأزمان . فلا يراد أنه لايدخل الجنة أبداً ، ولا يدخلها فى حالة من الحالات التى تقع تحت اللفظ ، بل يراد أنه لايدخل الجنة فى زمن معلوم ، وحالة خاصة ، كأن يراد أنه لايدخلها ابتداء مع أول الداخلين ، أو لايدخلها دخولا مطلقاً ، دخولا حراً من كل قيد ، يبيح له كل لذة فى الجنة بلا تقييد ولا تضييق ، أولا يدخلها دخولا يبيح له جميع لذات الجنة ودرجاتها . والجنة درجات كما النار دركات . أعاذنا الله منها . بل يدخلها على حالة من الحالات .

وهذا الرأى لا تأباه اللغة والدين ، ونظائره موجودة معروفة فى الكلام . فقد قال الله فى حق موسى : (قال ربى أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل) . وقال فى حق اليهود (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبداً) ولا ريب أن موسى سوف يرى الله فى الآخرة ، وأن اليهود سوف يتمنون الموت وهم فى أطباق النار فراراً من ذلك العذاب النكر المستمر . فالنفى فى الآية لحالة لا لكل حالة ، وفي زمن لا فى كل زمن . وقال (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) . وقال (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب عظيم) . ولا ريب أنه لا يريد أنهم لا يكلمون ولا يسألون أبداً . فكذلك الروايات المذكورة . ومثل هذا من الكلام أن ترى جماعة يتأهبون للحج هذا العام ، فيقولون لك : ألا تخرج معنا ؟ فتقول : لا ، أو لا أخرج ، وأنت تعنى أنك لا تخرج العام ، لا كل عام . وكذا إذا قال إنسان يريد الذهاب إلى مكان : اذهب معى إلى مكان كذا ، فقلت : لا أذهب ، كان مرادك أنك لا تذهب معه فى تلك الساعة لا فى كل ساعة . وكذا إذا قيل لك : كل واشرب واقعد واخرج ، فقلت : لا أفعل ، كنت تريد أنك لا تفعل فى تلك الساعة لا فى كل ساعة . وهذا شىء واضح . وهو كلام فصيح جائز فى كل لغة . وكلام رسول الله يذهب به حيث تذهب العرب بكلامها وكذلك قد تقول : فلان لا يتقى الله ، ولا يخاف الله ، إذا ما كانت

تقواه وخوفه قليلين ، وإن كان أصل ذلك موجوداً عنده . وتقول : فلان لايخاف أحداً ، ولا يحب أحداً ، ولا يرجو أحداً ، إذا ماتنقص حظه من ذلك . ولست تريد أنه فقد ذلك جميعاً . فان هذا لايمكن .

وهذا التوجيه فى الروايات يوافق الأخبار الصحيحة الكثيرة فى أن طوائف من المسلمين يدخلون النار ويخرجون منها بعد أن يطهروا وينقوا من سيئات تلطخوا بها . وهذان التوجيهان هما أحسن ما يقال فى الأخبار

وفيها أقوال أخرى قالها شراح الحديث . فقيل : إنها منسوخة بالآيات والأحاديث والاجماع . فان هذه دالة على أن الموحدين يدخلون الجنة لامحالة ، وإن عذبوا فى النار أزماناً . وقيل : إن هذه الأخبار كانت في بدء الاسلام . وقيل : إن المراد من استحل تلك القبائح لا من فعلها وهو يرى أنها حرام . فالذي يستحل النميمة والقطيعة ودماء الذميين لا يدخل الجنة أبداً ، لأن من استحل ذلك كفر . وقيل : إنها من العام الذي عني به الخاص . فهى وإن كانت ظاهرة فى أن من فعل ذلك فهو فى النار مخلداً سواء الكافر والمؤمن إلا أن المراد بها الكافر ، ولا ينكر أن فى الشريعة وفى اللغة الفصيحة عمومات أريدبها خصوصات . وقيل : إن المراد منها التخويف وزجر الآثمين . وقيل : غير ذلك

وجميع هذه الأقاويل لا يعتد بها وبعضها من أقوال أهل الالحاد وهو القول الأخير .

تحريم من قال لا إله إلا الله على النار

عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار » وعن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله عليه السلام يقول « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذبهم إذا فعلوا ذلك » وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار » وعن عتبان بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فيدخل النار » وفى رواية « أو تطعمه النار » . هذه الروايات صحيحة خرجها أصحاب الصحاح وغيرهم .

وقد أسرف قوم فزعموا أن من شهد أن لا إله إلا الله فهو فى الجنة ، وهو محرم على النار ، وإن تلبس بالفواحش كلها ، وإن لم يعمل خيراً قط ، واحتجوا لمقالتهم هذه بالروايات المذكورة وما فى معناها . وهذا القول من الدين والصواب فى مكان سحيق ، وهو مخالف قطعيات الدين وإجماع أئمة الإسلام قاطبة ، ومخالف الضرورة والمعقول . وقد صرح الكتاب الكريم وكذلك سنة رسول الله فى غير موضع أن من ترك الصلاة أو شعيرة من شعائر الإسلام الكبرى فمصيره إلى النار ،

وإلى غضب الله ولا بد . وجهر أن من عصى الله فهو ذاهب إلى النار ، وهو على خطر عظيم . قال (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) وقال (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً) أى عذاباً أليماً . وقال فى المشركين (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين) وفى الآية الأخرى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) إذاً من لم يتب من الشرك ، ويقل لاإله إلا الله ، ويقم الصلاة ، ويؤت الزكاة ، فلا يخلي سبيله المؤمنون ، بل يجاهدونه على ذلك جهاداً عظيما . ومن وجب أن يجاهده المؤمنون فليس منهم ، وليست له الجنة . وكذلك من لم يفعل ذلك فليس من المؤمنين وإن قال لا إله إلا الله ، وليس أخاهم ، لأن الآية اشترطت للأخوة القيام بهـــذه الشعائر . ومعلوم (إنما المؤمنون إخوة) فالذى ليس أخاً لهم ليس بمؤمن . وقد اعترف أهل النار أن أول ما يدخلهم النار هو ترك الأعمال . فقالوا لما قيل لهم (ماسلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين) وفى غير ما آية من كتاب الله أن أهل الجنة هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) بل قد جعل القرآن العمل هو الطريق إلى الجنـة وحده . فقال (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وقال (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) وقال (هل تجزون إلا بما كنتم تعملون) إلى آيات كثيرة . وذلك يدل على أن الايمان بلا عمل لافائدة فيه بل

لايسمى إيماناً . كما يقول السلف : إن الإيمان قول وفعل وعقيدة . وهذا قول أهل الحق قاطبة .

وقد عرف القرآن المؤمنين فى آيات عدة (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) وقال (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً) وفى أول البقرة (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وقد أوعد من عصى فقال (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبداً) وقال بعد أن قسم المواريث (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) بل قد ذكر ماهو أبلغ من ذلك فى الايعاد ، فقال (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وفى آية (فأولئك هم الظالمون) وفى ثالثة (فأولئك هم الفاسقون) وقال (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما)

هذه براهين قاطعة على أن الشهادتين وحدهما لا يعصمان من الكفر ولا من النار ، ولا يوجبان الجنة . ولقد توعد على سائر المعاصى

بالنار والغضب والحرمان . فذكر متعاطى الربا بأشد عبارات الوعيد والتهديد ، وكذلك فعل فى الزنا والقتل والسرقة والظلم والعدوان . وصح عن رسول الله فى مسلم وغيره أنه قال : « من ترك الصلاة فقد كفر » وصح أنه قال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » ، وفى الصحاح والمسانيد والسنن أنه قال عليه السلام : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . وفى البخارى ومسلم أنه قال : « لا يدخل الجنة نمام » ، وفيهما قال : « لا يدخل الجنة قاطع رحم » ، وقال : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة » ، وفى الصحيح أنه قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر » ، وصح أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وقال : لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » ، وأنه قال : « والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » خياناته . وصح أنه قال : « دخلت النار امرأة فى هرة » وقال : « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا » وصح أنه قال لما سأله جبريل ما الاسلام : « الاسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » ، وقال : « اطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء » . فقيل له : ولم يارسول الله ؟ قال :

« لأنهن يكفرن » . قيل: أيكفرن بالله . قال : « لا . ولكن يكفرن الاحسان » ، وقال : « من رغب عن أبيه فقد كفر » .

كل هذه الأخبار فى الصحاح وغيرها . وفى صحيح مسلم أنه قال : « إثنتان فى الناس هما كفر : الطعن فى الأنساب ، والنياحة على الميت » وفى البخارى عن رسول الله عن الله عز وجل أنه قال : (من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب) . والأخبار الصحيحة فى هذا المعنى لا تعد . وليست الأخبار التى احتجوا بها أكثر من هذه ولا أصح

ثم لو صح لهم أن يتمسكوا بظاهر هذه الروايات لقالوا : إن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فالنار محرمة عليه ولو كفر بما عداهما : ولو كفر بالملائكة والنبيين وكل ما بعد الموت . وهذا لا يقوله ملى . إذاً لا يصح التمسك بظاهر الروايات البتة . إذاً ما معنى هذه الأحاديث المذكورة وعلى أى شىء تحمل ؟ فالجواب أن نقول : يجب أن نفهم الأحاديث مع نظرنا للأحوال التى أحاطت بها ومع نظرنا لحال القائل والذى قيلت له . فاننا إذا نظرنا إلى ذلك كله فهمنا الأخبار صواباً ولم نضل فيها ، وإن لم ننظر إلى ذلك بل أردنا فهمها من ألفاظها مجردة من كل قرينة وحال ، كنا غالطين ضالين فى فهمنا وفى تفكيرنا ولا محالة . وهذا أمر عام فى كل الأقوال ، يجب على الذين يريدون أن يفهموا قولا وأن يحيطوا بمعناه أن يتدبروا الظروف والحالات التى كانت مسيطرة على القائل ومن قيل له ، ليفهموا المعنى

الذي قصد إليه القائل ، ومن لم يفعل ذلك كان خطؤه أكثر من رشده ولا جرم . وهذا شيء لا نزاع فيه بين العلماء .

إذاً يجب أن نفهم حال رسول الله ، وحال الذين خاطبهم رسول الله بتلك الأحاديث لنستطيع فهمها ، ولنعصم من الضلال فيها . نظرنا فوجدنا الذين كانوا في زمن رسول الله عليه السلام ، والذين كان يخاطبهم رسول الله بتلك الأخبار ، لم يكونوا يأبون منه إلا الشهادتين . إلا أن يشهدوا أن لا معبود إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . فاذا ما أقر أحد منهم بذلك لم يأب الأعمال ، ولم يمتنع من القيام بالطاعات التي جاء بها ، بل أذعن لذلك جملة . فالخلاف إذاً بين رسول الله وبين الناس في التوحيد والشهادتين ، لا في الأعمال . فاذاً قوله صلى الله عليه وسلم : « من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار » يريد من قبل دعوته التي جاء بها ، وهي التوحيد والتصديق أنه رسول الله ، وذلك مستلزم للأعمال والطاعات . ولا يراد به إن يقول ذلك مع ترك الأعمال ، فان هذا لم يكن موجوداً في المخاطبين ، ولا معهوداً في زمنهم . وحمل الأخبار على ما لا يعهد ولا يعلم لا يجوز مطلقاً . ومن حملها كذلك كان ضالا . فقوله صلى الله عليه وسلم « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » معناه من آمن بالله وبرسول الله . وذلك يستتبع القبول لما جاء به ويستتبع العمل به ، وقد جاء بالأعمال وشعائر الاسلام وأوجب ذلك على المؤمنين ، وأوعد من لم يعمل بالنار والغضب . فمن لم يعمل بما جاء به لم يكن مؤمناً صادقاً في إيمانه . ومثل ذلك أن

تزعم أنك صديق لفلان ، وأنك حبيبه الخالص ، ثم لم تعمل مع هذا الزعم بما توجبه الصداقة ، وبما يشرعه الحب ، فانه لا يمكن حينئذ أن يصدق أحد دعواك ، ولا يمكن أن تكون صديقه وحبيبه حقيقة . فان المحب مطيع محبوبه ولا محالة .

ومثال هذه الأحاديث أن يقوم إنسان يطلب الملك ، فيخرج كتابا للناس يقول : من أقر بأنى ملك عليه ، واعترف لى بذلك ، أعليته وأرضيته دائما ، ولم أغضب عليه أبداً ، ولم أوذه يوماً . فهل يمكن أن يفهم أحد من قوله هذا أنه يريد : من اعترف لى بالملك نال هذا الجزاء ، وإن لم يطعنى ، وإن لم يقبل قوانينى وما فرضته على الناس ، وإن آذانى بالعصيان والمحاربة ؟ ! اللهم لا . فكذلك أقوال رسول الله عليه السلام .

هذا هو التوجيه الأول لهذه الأحاديث . وهو توجيه حسبك به جودة !

وثم توجيه آخر ، وهو أن يقال : كان أناس يؤمنون بالله ورسوله فيموتون أو يقتلون فى سبيل الله قبل أن يدركهم وقت العمل ، وقبل أن يعملوا ، لان الأجل لم يمهلهم ، فهؤلاء يدخلون الجنة ، ويحرمون على النار ، وهم لم يعملوا . فهذه الأحاديث تريد أمثال هؤلاء . وقد حصل ذلك فى زمن رسول الله ، فآمن به أقوام ، وجاهدوا معه فقتلوا فى سبيل الله قبل أن يصلوا ويصوموا ، وقبل أن يقوموا بأركان الاسلام ،

فهم في الجنة . وهذه الأحاديث قيلت فى حقهم . هـذا هو التوجيه الثانى ، وهو دون التوجيه الأول .

وثم توجيه ثالث ، وهو ان يقال : لا شك أن من ضمن شهادة ان محمداً رسول الله ، ومن جملة الإيمان به المعبر عنه بالشهادة أنه رسول الله ، الإيمان بكل ماجاء به وطاعته فى الذي أمر به ، وفى الذى نهى عنه . فلا يتم إيمان إنسان به حتى يؤمن بماجاء به . ومن لم يكن كذلك لم يكن مؤمناً ، ولا شاهداً أنه رسول الله . فإن معنى الإيمان به الايمان بالذى جاء به وقاله وفعله ، وأنه من عند الله ، لا يجوز مخالفته ولا عصيانه هذا هو الإيمان بأنه رسول الله . كما ان معنى الإيمان بأن فلانا من الناس طبيب لا يقر به الخطأ فى علاجه ان نذعن له إذا أمر ونهى وعالج ، وأن نقع تحت تصرفه . وأما من رفض قول الطبيب وهو عليل ، كان رفضه دليلا على انه غير مؤمن له بالطب وصدق العلاج . هذا هو الواقع فيمن كان متوازن الشعور والتفكير . ومن قال : إن سيبويه نحوى لا يسامى ، ولا يتجاوز الصواب نحوه ، ثم راح يخالفه وينقض عليه آراءه فى النحو ، لم يكن مؤمنا بما قال ، ولا صادقاً فيه

فالإيمان بالرسول ، الذى يكفل الجنة ، ويحرم على النار ، يشمل الاذعان له فيما جاء به ، وطاعته فيما أمر ونهى ، وإلا لم يكن إيماناً بأنه رسول الله . كما أن معنى الايمان بأن فلاناً من الناس رسول الملك الذى لا يكذب ، طاعته فيما ادعاه ، وفيما طالب به ، وإلا كان من أرسل اليهم معرضين لعقاب الملك ، وخارجين عليه ، فالايمان بالرسول ، أنه

رسول الله ، يشمل الإيمان بكل ما جاء به ولا ريب .

ولهذا ذكرت الأحاديث الإيمان به ، ولم تذكر الإيمان بسائر الأنبياء والملائكة والكتب وغير ذلك ، لأن الإيمان به يشمل ذلك كله . ولو لم يكن كما ذكرنا لكان الإيمان بمحمد عليه السلام منجياً من النار ، وإن لم يلازمه الايمان ببقية الرسل والكتب والملائكة واليوم الآخر . فهذه الروايات لا تدل البتة على أن من ترك الأعمال فى الجنة . كما أنها لا تدل على أن من كفر بعيسى ، أو نوح ، أو باليوم الآخر ، أو بالجنة ، أو بالنار ، وآمن بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فهو فى الجنة

وأخيراً لينظر هؤلاء المرجئة فى قوله تعالى (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وفى قوله (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً)

سجود الشمس تحت العرش

عن أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال حين غربت الشمس « أتدرى أين تذهب هذه ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال « فانها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، فيقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها . وذلك قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) » رواه البخارى ومسلم . وفى لفظ

لها « فتستأذن في السجود فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت »

وقد ظنت طائفة أن هذا الحديث يدل على أن الشمس تغيب عن الأرض فى وقت وتذهب لتسجد تحت العرش ، فكذبوا الحديث ، وقدحوا فى روايته ورواته ، وهم عدول . قالوا : اننا نعلم بالضرورة والمشاهدة والحس أن الشمس لا تفارق الأرض لحظة ، وإنما تغيب عن قسم منها وتطلع على قسم آخر حتى تقطع الأرض كلها كذلك . قالوا : والحديث الذى يخالف المشاهدة والحس لا يصدق

وقالت طائفة : إن الحديث صحيح ، وإن الشمس تذهب كل يوم وتسجد تحت العرش ، وتغيب عن الأرض . ولم يعبأوا بأن يعاندوا الضرورة والمشاهدة .

والطائفتان غالطتان غلطاً مبيناً . يتبين لك ذلك بتفسير الحديث كلمة كلمة . فنقول : الذى فى هذا الحديث ما يأتى :

أولا — إن الشمس تغرب

ثانياً — إنها تذهب وتجرى .

ثالثاً — إنها تسجد تحت العرش

رابعاً — إنها تستأذن فيؤذن لها

خامساً — إنها تجرى حتى تستقر تحت العرش ، وإن العرش مستقرها

سادساً — إنها تطلع أخيراً من مغربها

هذا جملة ما فى هذا الحديث . فلننظر أفيه ما يخالف المشاهدة والحس

أما الأول ، وهو أنها تغرب ، فلا إشكال فيه . لأن الغروب هو الاختفاء . والشمس تختفى . ولا يضرنا أن يكون الغروب أى الاختفاء ناشئاً من سير الأرض ، أو من سيرها هى . فالعرب تقول : غرب الجبل وغاب . إذا ما أبعدوا عنه حتى اختفى عنهم . والجبل ثابت مكانه لا يزول . والذين يقولون : إن الشمس ثابتة يقولون لها غربت وطلعت . وغروبها مذكور فى القرآن

وأما الثانى ، وهو أنها تذهب وتجري ، فلا إشكال فيه أيضاً . لأن علماء الفلك اليوم يقولون : إنها تدور حول نفسها ، ويقولون : إن لها دورة أخرى حول نجم آخر . والدوران لا يكون إلا من جري بالضرورة ، لأن الجري هو المشي . ثم إن الجري له استعمال آخر مجازي ، كما تقول الآن : إن الحكومة السعودية العربية تجرى الى الأخذ بأطراف الكمال والمدنية الفاضلة بجد ونشاط ، وكما يقال : جرى قلم القضاء بما يكون ، وأمثال ذلك . ولا يراد به الحركة والانتقال حقيقة

وأما الثالث ، وهو أنها تسجد تحت العرش ، فنقول : قد أخبر القرآن أن كل شيء فى السموات وفى الأرض يسجد لله ، كما قال (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال) وقال (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس

والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب) وقال (النجم والشجر يسجدان) والآيات فى هذا كثيرة . كما قد أخبر أن كل شيء قد أسلم له ، وكل شيء يسبحه (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) (سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض) ولا يراد بذلك سجود كسجود العقلاء ، ولا تسبيح كتسبيح العقلاء . وإنما يعنى به أحد ما يأتي :

إما ان يكون ذلك عبارة عن الانقياد والخضوع . والناس يسمون هذا سجوداً . كما قال الشاعر :

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني فلا أعاتبه صفحاً وإهوانا

وكما قال الآخر :

فكيف بمن لو أنني لحت واقفاً هوى ساجداً من خشيتي وقضى النحبا

وكما قال عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

والمراد بهذا السجود الخشوع والانقياد . ويقوي هذا التفسير قوله فى الآية (طوعاً وكرهاً) وقوله (وظلالهم بالغدو والآصال)

وإما أن يكون المراد بالسجود الدلالة على الله . يعنى أن هذه المخلوقات تدل على الله ، وعلى أنه يستحق أن يسجد له كل شيء ، وأن يعبده كل شيء وهذا مجاز مشهور فى اللغة . والتفسير الأول فى السجود هو التفسير .

وأما تقييد السجود بأنه يكون تحت العرش فهو مبالغة فى الانقياد

وعبارة عن تمام ذلك. كما يقال : فلان يسجد تحت قدمي فلان ، ويسجد تحت سريره ، وتحت عرش الملك . والمعنى فى ذلك المبالغة ، ولا تراد الحقيقة . فقوله إنها تسجد تحت العرش يعنى انها خاضعة له أكمل الخضوع وأتمه

وأما الأمر الرابع ، وهو أنها تستأذن فيؤذن لها . فنقول : غاية ذلك ان يكون مجازاً يراد به طاعتها لخالقها ، وطلوعها وغروبها بمشيئته وإرادته ، حتى كأنه يأمرها وينهاها فتعقل عنه ، وحتى كأنها تستأذنه فى رواحها وغدوها . وهذا كله يعبر عن الخضوع . فان الخاضع يستأذن المخضوع له عادة ، ويستأمره فيما يأتي وما يذر ، ويسير حسب إذنه . فأطلق الاستئذان وأراد به ما يتبعه عادة ، وهو ما ذكرنا . وهذا النوع من التوسع شائع فى الكلام . فهم يقولون : هذه الرسوم البالية تخبرنا أن كل شيء بال ، وأن كل جديد فالى البلى والزوال . ويقولون : هذه السيوف تشكو طول مكثها فى الأغماد . ويقول القائل منهم : شكا إلى جملى وناقتى طول السرى ، وشكت هذه الدابة الىّ الجوع والتعب . ويقولون : هذا البيت يخبرنا أن بانيه حاذق بناء ، وهذه الصورة تقول إن من رسمنى لراسم ماهر . ويقولون : قالت عينا الحبيب سمعاً وطاعة . وأمثال ذلك لا يحصى . وطائفة من المفسرين يقولون : إن كل ما نسب إلى الجماد ، والسماء ، والأرض من المقال ، والخطاب بينها وبين الله محمول على ذلك . وذلك كقوله فى السماء والأرض (قالتا أتينا طائعين) ونظائرها المعروفة في القرآن . ومثله استئذان الشمس وسجودها

وأما الخامس ، وهو أنها تجرى حتى تستقر تحت العرش، فيقال : أما الجري فقد ذكرنا معناه. وأما أنه يكون تحت العرش، فيقال : هذا كناية عن رجوعها إلى الله . إذ ليس وراء الله لمخلوق مرجع ولا مذهب فهو كقوله تعالى (ألا إلى الله تصير الأمور) ويقول الناس « خطاب العرش » وهم يريدون خطاب من على العرش . أو يكون المراد بذلك أنها تستقر تحت العرش أخيرا عند ما يأذن الله للساعة بأن تقوم

وأما الأمر السادس ، وهو أنها تطلع من مغربها ، فيقال : هذا عند ما يأذن الله تعالى للعالم بالخراب والفناء ، ليخلق عالماً من أنقاضه أصلح للسكنى وأكثر إراحة لعباده . وهذا من علامات الساعة . والأخبار بأن الشمس تطلع من مغربها فى الصحاح

هذا جملة ما فى الحديث مما قد يعد مشكلا قد بان لك أيها القارىء أنه لا يقضى برد الحديث الصحيح . فان قلت : إن كل ما ذكرت جميل لولا أن قوله « تذهب حتى تسجد تحت العرش » يدل على أن السجود غير الذهاب ، وغير التصريف والانقياد . لأنه قد جعل السجود نهاية ذلك وغايته . فلا بد أن يكون السجود المذكور غير ما عبرت عنه بالخضوع

قلت : عن هذا جوابان :

أحدهما — أن المراد بالسجود تحت العرش هو وقوعها تحته حقيقة فى آخر الدنيا عند انقضاء مهمتها ، وسكون حركتها . والمعنى أن الشمس تبقى فى شأنها إلى أن يأذن الله بفساد العالم ، فتقع تحت العرش

ساجدة . وكل شيء الى انقضاء إلا وجه ربنا تعالى

وثانيهما — ان هذا مثل أن تقول : سار فلان حتى سار سيراً متعباً . وسار حتى أجد فى السير . وسار حتى انقطع ظهره من الاعياء . وأمثال هذه الكلمات . وليس جنس الذى قبل (حتى) غير الذى بعدها فيه . على أن (حتى) قد تكون للعطف المطلق كالفاء والواو . وهذا قول مشهور لطائفة من علماء النحو . وعليه يكون سياق الحديث « تذهب فتسجد تحت العرش » الى آخره . وعلى هذا يخلص الحديث من هذه الشبهة

وعلى كل حال فالحديث عبارة عن أن الشمس مسخرة لله ، خاضعة لأمره الكونى ، سائرة على حسب ما أراد وقدر ، حتى كأنها عاقلة ، تسمع خطابه . والرواية الأخيرة وهى قوله « حتى كأنها قيل لها ارجعى من حيث جئت » تشهد لهذا وتقوى أن يكون الحديث تمثيلاً لحالة الشمس . فالحديث صحيح المعنى مع تدبره ومع اعطائه ما يليق به من التفهم والتعقل والتريث فى اصدار الاقوال . فان الزلل كثيراً ما يقارن العجل

نسخ التلاوة فى القرآن

وردت أحاديث فى الصحاح وغيرها تدل على أن آيات من القرآن الكريم قد نسخت تلاوتها مع إبقاء أحكامها . ففى البخارى عن عمر بن الخطاب أن آية الرجم قد نزلت فى كتاب الله . وفى صحيح مسلم